موت المؤلف: الخلفيات الفلسفية لاستقلال النصّ

The Death of Author: The philosophical backgrounds of textual autonomy.

بلقوت مُحَمَّد

جامعة عباس لغرور _خنشلة، belgout.mohamed@univ-khenchela.dz

تاريخ الاستلام: 2025/01/20 تاريخ القبول: 2025/11/21 تاريخ النشر: 2025/12/15

ملخص:

إن التأصيل للمصطلح النقدي أمر في غاية الأهمية، ذلك بأن أيّ فصل للمفاهيم النقدية عن الأصول الفلسفية سيؤدي لا محالة إلى عزل الدراسات الأدبية عن السياق الفلسفي الأوسع، مما يؤثر على القدرة على ربط الأفكار النقدية والأدبية بخلفياتها الفلسفية.

هذه القناعة هي التي جعلتنا نتقدّم بهذه الدراسة التي نسعى من خلالها إلى تقديم قراءة تأصيلية فلسفية لواحد من أبرز المفاهيم النقدية الحديثة تداولا، ونقصد بذلك مفهوم "موت المؤلف" الذي ظهر استجابة لمؤثرات ثقافية وفلسفية سنحاول التعرّف عليها.

كلمات مفتاحية: موت المؤلّف؛ موت الإله؛ البنيوية؛ الفلسفة؛ النقد.

Abstract:

The philosophical contextualization of critical terms is too important, because separating critical concepts from their philosophical roots would isolate literary studies from the philosophical context, undermining the ability to connect critical ideas with their philosophical backgrounds.

This convictionis what led us to present this study that aims to provide a philosophical grounded interpretation of the prominent critical concept “the death of the author”, which emerged in response to cultural and philosophical influences that we will explore.

Keywords:the death of the author;the death of god; structuralism; existentialism; philosophy; criticism.

المؤلف المرسل: بلقوت مُحَمَّد، **الإيميل**: belgout.mohamed@univ-khenchela.dz

1. مقدمة:

لا مراء من القول بأن موضوع التشابه بين الكون والنصّ الأدبي يعدّ من أقدم الموضوعات الفلسفية والأدبية التي أثارها الفلاسفة القدامى، وخاصّة أفلاطون Platon347 ق.م_427 ق.م الذي يعود له الفضل في التأسيس لواحدة من أعرق النظريات الأدبية والفنيّة عموما؛ وهي **المحاكاة** التي ترى في الأدب والفنّ تمثيلا للواقع، فالنصّ الأدبي هو صورة مصغّرة عن الكون من حيث هيكلته وتنظيمه، فكما أن للكون قوانين فيزيائية ونواميس كوزمولوجية تضبط حركته، كذلك يخضع النصّ الأدبي لقوانين لغوية وجمالية تحكم بناءه، فالنصّ الأدبي وفق هذا المنظور الفلسفي يعدّ انعكاسًا وتصويرًا للكون من خلال تمثيله لمختلف العلاقات بين العناصر والقوانين التي تحكمه.

ويزداد وجه الشبه وضوحا بين الكون والنصّ الأدبي مع الرواية بعالمها السردي الفسيح، وما يتأطّر ضمنه من مكوّنات سردية يعكس كلّا منها واقعا حقيقيا (الشخصيات، الأحداث، الزمن، المكان...)، فالرواية تعدّ أقدر الفنون الأدبية على تمثيل الحياة الإنسانية بكل تعقيداتها ومشاكلها من خلال تصوير الشخصيات الإنسانية بمختلف فئاتها وأنماطها، وتمثيل الصراع والتفاعل الإنساني، والأهم من هذا وذاك أنها تطرح عبر نصوصها المختلفة أسئلة أنطولوجية عميقة عن وجود الإنسان، ومكانته في الكون، فالنصوص الروائية والأدبية عموما هي محاولة لفهم الوجود، ونماذج تجريبية له.

هذا النصّ الأدبي الذي قلنا عنه بأنه كون صغير، وعالم مستقل له قواعده وقوانينه الخاصّة، له موجدٌ أيضا كما للكون موجدٌ وخالق؛ هو المؤلف الذي يمتلك السلطة الإبداعية الكاملة لخلق عالم إبداعي يقرّر فيه مصير الشخصيات، ويصوّر فيه الأحداث بالطريقة التي يريد؛ مما يجعل منه خالقا للنصّ الأدبي؛ ينظر إليه من علٍ، ويتحكّم في مجرياته بالطريقة التي يشاء، وهذه الفكرة تبرز دور المؤلف كخالق فني يؤثر على العالم الأدبي، لكنها تجعل منه أيضا سيّد النصّ الأوحد، خاصّة في الفلسفات الكلاسيكية والنظريات الأدبية القديمة التي عملت على تركيز السلطة في يدي المؤلف، واعتباره المصدر الوحيد للمعنى، والمدرك الأوّل والآخر للحقيقة في نصّه.

غير أن الأمر لم يدم على هذه الحال، حيث أدّت التطوّرات والتغيّرات التي طرأت على العالم الغربي الحديث إلى ميلاد فكر حداثي جديد، أنتج لنا نظريات ومناهج أدبية لها رؤيتها الخاصّة، وفهمها الفريد للأدب والإبداع، أبرزها البنيوية التي تقرّر لديها الاستغناء عن المؤلف، واستبعاده من عملية مقاربة النصوص الأدبيّة، والاكتفاء بالنصّ كبنية مغلقة، والسبب في هذا الاستبعاد الذي تمّ تحت مسمّى "**موت المؤلف**"، أن هذا الأخير يتدخل في توجيه القراءة وتقديم تأويلات حول عالم منفصل عنه، وهذا الذي ترفضه هذه النظرية التي تؤمن بحرية القارئ وقدرته على إعطاء المعاني وتقديم التأويلات دون وساطة، من خلال المعاينة المباشرة للنصّ.

ومفهوم "**موت المؤلف**" لم يأت من فراغ وإنما له جذور عميقة في بعض الفلسفات الحديثة والمعاصرة خاصّة الفلسفة الوجودية التي أعلنت بدورها عن "**موت الإله**"، واستبعدته من كل عملية تسعى إلى تقديم معنى للوجود، مكتفية بالفاعلية الإنسانية، والعقل البشري الذي تراه الملكة الوحيدة التي بإمكانها إدراك جميع الحقائق الكونية دونما حاجة إلى قوى غيبية، وانطلاقا من هذه الفكرة الجوهرية التي تماثل بين الكون والنصّ الأدبي، وتجعل من مفهوم موت المؤلف على علاقة مباشرة مع مفهوم موت الإله في الفلسفة، تتأسّس هذه الورقة في محاولة لربط هذا المفهوم النقدي بأصوله الفلسفية من خلال البحث في التحوّلات الحادثة في مفاهيم وتصوّرات الفلسفة الغربية، وكيفية تأثير ذلك على حقل الأدب، وأخيرا انعكاسات ذلك على أنماط فهم وقراءة الوجود عبر النصّ.

2. بين موت المؤلّف وموت الإله:

موت الإله فكرة فلسفية ظهرت في القرن التاسع عشر، يشير أصحابها إلى أن الإله كمفهوم تقليدي للسلطة والقوة والخلق قد مات، مما أدى إلى انهيار القيم التقليدية والسلطات الدينية(كولينز، د.ت، صفحة 361)، وقد كان الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه F. Nietzsche1884م_1900م أحد أكثر الفلاسفة إيمانا بهذه الفكرة، وهو الذي ذكرها في أكثر من موضع من مؤلفاته؛ واحدة منها كانت في كتابه المعروف "**هكذا تكلّم زراداشت**"، حيث صوّر لنا موقفًا صادف فيه **زراداشت** عجوزا في جبل يبتهل ويسبّح للإله فاستغرب منه هذا الفعل الذي يدل على عدم

علم العجوز ودرايته بموت الإله، حيث يقول نيتشه: "لكن حالما وجد زراداشت نفسه وحيدا حدّث قلبه بهذا الكلام: أيعقل هذا؟! هذا القدّيس العجوز لم يسمع هنا في غابه بعد أن الله قد مات"(نيتشه، 2007، صفحة 39).

ويبدو أن السبب الرئيسي الذي جعل نيتشه يعلن موت الإله هو اعتقاده باستغلال رجال الدين واللاهوت لاسم الإله في التأسيس لمفاهيم وقيم ونسبتها إليه خدمة لمصالحهم الشخصية، حيث عاد نيتشه في حفرياته إلى النشأة الأولى للقيم والمعايير الأخلاقية التي اكتست طابع الثبات والتعالي على الزمن للبحث في الشروط الوجودية والمصلحية التي أوجدتها، ليصل في النهاية إلى تقرير زيفها، واعتبارها في أصلها أرضية ولا علاقة لها بالسماء.

ويرى مارتن هايدغر M. Heidegger 1889م_1976م أن تاريخ الفلسفة قد أخذ مع مواطنه نيتشه منعرجا حاسما حين "أعلن عن لحظة الانتقال من ميتافيزيقا الفكر إلى ميتافيزيقا الحياة"(الدوّاي، 1992، صفحة 39)، بتحرير الفلسفة من قيود المبادئ والمعايير الموجّهة التي صادرت حرية الفيلسوف في التفكير الحرّ، مُعلنا في الوقت عينه مشايعته لنيتشه فيما ذهب إليه من ضرورة قطع الصّلة مع ماضي الفلسفة بالانقطاع الكامل عن المبادئ والقيم الثابتة والأحكام المتعالية، ثم تفعيل دور الإنسان الذي يضعه هايدغر في مركز الكون، باعتباره المسؤول الأوّل عنه، والكيان الوحيد القادر على فهمه مقارنة بالكيانات الأخرى التي يتفوّق الإنسان عليها.

هذا التحوّل من مركزية الإله إلى مركزية الإنسان في الأطاريح الفلسفية التي قدّمها نيتشه ثم هايدغر، كان سببًا مباشرًا في اعتناق الفيلسوف الفرنسي جون بول سارتر J.P. Sartre 1905م_1980م للوجودية، وهو الذي يعتبرها مذهبا إنسانيا نافيا عنها صفات التشاؤم واليأس والذاتية التي أُتهمت بها، ومنافحا دونها وما تسوّق له من رؤى وأفكار منطلقها الأساسي إلغاء فكرة الإله، حيث يقول: "وأنا هنا سأحاول الردّ على تلك الانتقادات المختلفة، ولذلك أسميت هذه المحاضرة المختصرة باسم «الوجودية مذهب إنساني»، فإذا كان البعض يرى في وصفي للوجودية على أنها مذهب إنساني ما يثير

دهشته، فإني سأحاول شرح فهمي لهذا المعنى، وأستطيع أن أقول بداءة، أنني أفهم الفلسفة الوجودية كمذهب يجعل الحياة الإنسانية ممكنة"(سارتر، 1964، صفحة 6).

بهذه الطريقة تأسّست الفلسفة الوجودية مستفيدة من انهيار السلطة الدينية التقليدية تحت تأثير التحوّلات الثقافية والاجتماعية للمجتمعات الغربية الحديثة، وهي فلسفة يصفها أعلامها بالإنسانية لأنها تعلي من قيمة الإنسان في مقابل الإله، وتحاول تصحيح مسار الفلسفة وتصويب وجهتها بالانتقال من المشكلات النظرية المجرّدة، والتصوّرات الذهنية المفارقة لعالم الحسّ إلى النظر في الوجود البشري العيني، أين يصبح الإنسان مركز الاهتمام، وكلّ ذلك أدى إلى حدوث تحوّلات كبيرة على الفكر والفلسفة الحديثة، من حيث النظرة إلى القيم والدين والسلطة.

وبما أن الظاهرة الأدبية لا تنشأ في معزل عن الحركة المعرفية المتواصلة في التجربة الإنسانية، لارتباط تشكّلها وتغيّرها عبر الأزمنة والأمكنة بالتطوّرات الفكرية، ومواكبتها لأنماط فهم الوجود وتفسيره، فقد أثّر هذا المفهوم الفلسفي الجديد بشكل مباشر في حقل الأدب، حين عبّر بعض المنظّرين اللسانيين عن نيّتهم في استبعاد المؤلف عن العملية الإبداعية بنفس الطريقة التي أُستبعد بها الإله معتبرين أن اللغة سيّدة النصّ، لأنها تفرض قوانينها الخاصّة وتجبر مستعمليها على الخضوع لمنطقها الداخلي؛ فالمؤلف ليس أكثر من مجرّد ناظم للنصّ، ولا حظّ له في ابتداع المعاني وصناعتها لأن ذلك من اختصاص اللغة التي وحدها تحدّد شكل النصّ وتعطيه معانيه الحقيقية.

استفاد الناقد الروسي فلاديمير بروب v. Propp1895م_1970م من هذه الطفرة اللسانية حين قام بتحليل نصوص من الحكايات الشعبية الروسية، جاعلا من معرفة ما تقوم به الشخصيات داخل هذه الحكايات، والوظائف التي تؤديها هدفه الأسمى والوحيد، وهذه الأمور لا يُحتاج فيها إلى العلم بأصحاب الحكايات المنتخبة ومؤلفيها. ليسير على نهجه من بعد ذلك ثلّة من الباحثين أمثال: كلود ليفي شتراوس C.L. Strauss1908م_2009م، ألجيرداس غريماس A.J. Greimas1917م_1992م، وأيضا رومان جاكبسونR. Jakobson1896م_1982م. هذا

الأخير بدا شديد التأثر ببروب حين حاول هو الآخر أن يقيم علما دلاليا يحكم منطق الحكي، دونما أخذ بعين الاعتبار لأيّ سياقات خارج نصيّة(القاضي، 2010، صفحة 365).

غير أن النقلة الأبرز في هذا المجال حدثت مع الناقد الفرنسي رولان بارت R. Barthes1915م_1980م الذي يعدّ أكثر النقاد تطرفا في تعامله مع المؤلف حين شيّعه في مقال له صدر عام 1968م يعلن فيه عن "**موت المؤلف**"، ليرتبط بعد ذلك هذا المفهوم باسمه وصفا للفكرة القائلة باستقلال النصّ الأدبي وانفصاله عن مؤلفه(حمد، د.ت، صفحة 160)، حيث أكد بارت ومن سار على نهجه أن النصّ كيان مستقل يُدرس كبنية مغلقة بعيدا عن كل السياقات الخارجية التي تربطه بموجده المؤلف، وأن انفتاح النصّ على تأويلات متعدّدة ينفي امتلاك المؤلف للمعنى.

أدى هذا التحوّل في فهم دور وقيمة المؤلف داخل العملية الإبداعية إلى تحوّل آخر على مستوى نظرية الأدب، فبعد أن كانت النظرية الكلاسيكية ترفع من قيمة المؤلف، وتقول بحتمية المرور عبره كضرورة حتمية وشرط لازم لفهم سياقات إنتاج النصّ والظروف المحيطة به، جاءت النظرية الحديثة لتزيح المؤلف عن مكانة الصدارة، وتحلّ محلّه النصّ بما هو نسق من العلاقات، وبناء من العلامات اللغوية المستقلّة عن السياقات الخارجية، وكلّ هذا أثر بشكل مباشر على مفهوم النصّ الأدبي، وأيضا على طرق وكيفيات قراءة النصوص.

3. سلطة المؤلّف/ سلطة الإله:

كان لموت الإله كما طرحته الفلسفة الوجودية انعكاسات مباشرة على الإنسان، كونه الوريث الذي انتقلت إليه السلطة بعدما انتزعت من الإله، فالإنسان في الفلسفة الوجودية فرد حرّ يعتمد على نفسه في تحديد قيمه وأهدافه في الحياة ولا يحتاج إلى مساعدة أيّ قوى خارجية، أو بتعبير آخر الإنسان هو المسؤول الأوّل والأخير عن اختياراته للكيفية التي يحقّق بها وجوده، وهذا ما يجعل من الوجودية مذهبا إنسانيا حسب زعم سارتر الذي يقول: "ونحن نسمّيها بالإنسانية لأننا نذكّر بها الإنسان بأنّه لا مُشرّع لنفسه إلّا نفسه: وأنه في سقوطه عليه أن يقرّر لنفسه بنفسه"(سارتر، 1964، صفحة 66)، ومعنى ذلك

أن الإنسان له مطلق الحرية في اختيار قيمه ومبادئه الخاصّة دون أن يكون ملزما باتباع المنظومة القيمية التي ورثها عن الديانات السماوية والأرضية والفلسفات الكلاسيكية.

والواقع أن إعفاء الإله من دوره كمشرّع ومقرّر للقيم والمبادئ الأخلاقية والدينية، ثم نقل هذه السلطة إلى الإنسان هي فكرة محكوم عليها بالفشل لأسباب عدّة أهمّها تباين واختلاف مواقف ووجهات النظر بين الأشخاص والجماعات في الحكم على الموضوعات؛ بحيث تتعدّد الأحكام القيمية إزاء الموضوع الواحد، ما من شأنه أن يؤدي إلى الوقوع في النسبية واللامعيارية التي تؤدي بدورها إلى الفوضى والفراغ. كما أن العقل الذي راهنت الفلسفة الوجودية على كفايته وقدرتهفياختيار ما يناسب الإنسان قد أثبت فشله في تقديم إجابات قطعيّة تسوّغ للقيم والمبادئ التي يقترحها بديلة للقيم السماوية، وهذا ما تسبّب للفلاسفة الوجوديين بأزمات نفسية وأمراض وجودية عميقة تتسم بالقلق، والذعر، والشك واليأس.

هذه الأزمات النفسية، والأمراض الأنطولوجية التي تسبب بها مفهوم موت الإله عند بعض الفلاسفة الوجوديين؛ هي التي جعلت الفيلسوف الدنماركي سورين كيركجارد S. Kierkegaard1813م_1855م يبدي تمسّكه بالإله كمرجع أساسي للمعنى والقيم، حيث يرى أبو الفلسفة الوجودية المسيحية أن العلاقة الشخصية بين الإنسان والإله هي أساس الوجود الحقيقي، مؤكدا على دور وقيمة الإيمان بالإله في التعامل مع القلق الوجودي، وتحقيق السلام الداخلي والتوازن النفسي، فالإله هو خلاص الإنسان الوحيد ومن المرعب بالنسبة له؛ أي الإنسان أن يعيش بلا إله (كيركغورد، 2013، صفحة 108).

ويبدو أن الحريّة المزعومة التي أرادها الوجوديون للإنسان عبر نفي حقيقة الإله هي التي شجّعت البنيويين على الاقتداء بهم حين قرّروا بدورهم نزع السلطة من المؤلف ونقلها إلى القارئ لنفس الغاية، وهي إعطاء القارئ الحريّة الكاملة في تأويل النصوص، فالبنيوية أرادت أن تعيد الاعتبار للقارئ من خلال إشراكه في بناء المعنى، وتحويله من مجرد مستهلك للنصّ إلى قارئ نشط يساهم في إنتاج المعاني وتقديم الدلالات النصيّة، وهذا كلّه لا يتحقّق إلّا بموت المؤلف كما يشير إلى ذلك بارت حين يقول: "مولد القارئ ينبغي أن يقابله موت المؤلف"(كولر، 2016، صفحة 74)، فبعث القارئ وإحياء دوره داخل

العملية الإبداعية يمرّ عبر تعزيز التفكير النقدي، وإشاعة الحرية الفكرية للقرّاء، في مقابل تقليص سلطة المؤلفين، والكفّ عن النظر إليهم بوصفهم المصدر الوحيد للمعنى.

إن القائلين بموت المؤلف يرفضون السلطة التقليدية المطلقة للمؤلف، ويستهدفون مباشرة فكرة واحدية المعنى الذي يعتبر المؤلف مصدره الوحيد، ويرون أن هذا الفهم الكلاسيكي الذي شاع في عصور التسلط والاستبداد تحت تأثير عوامل ثقافية واجتماعية وسياسية لا يتناسب مع روح الحداثة، والجو الثقافي الذي يميّز العصر الحديث؛ عصر العولمة، والصناعة، والأنوار، والحريات، والديمقراطيات، فهذا المفهوم الحداثي يشدّد على التعامل مع النصّ كما يتقدّم إلى القارئ دون سياقات خارجية، ويدعونا صراحة إلى ضرورة تجاوز الفهم القديم الذي يؤمن بسلطة المؤلف المطلقة في تحديد المعنى النهائي للنصّ، بنفس الطريقة التي يرفض بها الوجوديون القول بأن الإله هو المرجعية الوحيدة والنهائية لكل معنى وحقيقة كونية.

4. استقلاليّة النصّ:

يؤمن الوجوديون بأن الكون لا يخضع في تدبيره وتسييره لأي قوى خارقة أو إرادة إلهية عليا، بل يتبع نظامه الخاصّ وقوانينه الطبيعية التي تنبثق منه وتعمل لحسابه، وتشايعهم في ذلك عدّة فلسفات غربية حديثة كالفلسفة التحليلية والتجريبية، وبهذا يصبح هذا العالم الفسيح مستقلا في تشغيله وحركيته. هذه الفكرة تتجاوز الحقيقة الدينية التي تقول بوجود إله وخالق للكون، لتفتح _حسب زعم أصحابها_ باب الفهم العلمي للكون وتشجّع على دراسته والبحث في القوانين الطبيعية التي تحكمه، مما يؤدي إلى تقدّم العلوم والفهم العميق للوجود، فعدم الإيمان بفكرة وجود إله يدير هذا الكون ويتصرّف في شؤونه الغاية منها كما أسلفنا التأكيد على استقلاليته التامّة، ومن ثمّة حرية الإنسان المطلقة في تقديم تفسيراته وتأويلاته للكون كما يتبدّى لحواسه وإدراكاته من غير حاجة إلى مساعدة القوى الغيبية التي تم نفيها واستبعادها بشكل نهائي.

لكن سورين كيركجارد الوجودي المتديّن يرى أن فعل النفي والاستبعاد يجب أن يطال رجال الدين ممّن يؤدون دور الوساطة بين الإله والإنسان(مبشور، 2018، صفحة 69)، لأنهم يقيّدون الحرية الفردية، ويحدّدون الإنسان في إطار معيّن، في الوقت الذي يميل فيه الإنسان إلى اكتشاف المعنى والغرض

من وجوده بنفسه دون اللجوء إلى سلطات خارجية، فهذا الرفض يعتمد على فكرة أن الإنسان هو من يخلق معاني وجوده الخاصّة، وأنه لا أحد يمكنه تحديد مصيره أو غرضه، وبالتالي يصبح الإنسان مسؤولا بشكل كامل عن اختياراته، ويصبح اكتشاف المعنى عملية فردية أو ذاتية، الأمر الذي يتيح للإنسان فرصة التعبير عن نفسه بكل حرية دون تقيّد بالتقاليد الدينية أو الفلسفية.

ويبدو أن كيركجارد لم يختلف كثيرا عن غيره من الفلاسفة الوجوديين لأنه أبقى على الإله ظاهريا ونفاه واقعيا، فرفض وصاية رجال الدين معناه رفض التأويلات والتفسيرات التي يقدّمونها للنصوص الدينية بما تتضمّنه من حقائق يفترض أنها ثابتة، فسورين كيركجارد يستأنس بفكرة وجود الإله، لكنه يتجاوزه من خلال الحريّة المطلقة التي يمنحها للإنسان في فهم الوجود وإعطاء المعاني والتأويلات، وعليه فإن نفي الإله أو الإبقاء عليه مع تجاوز قيمه ومعاييره كما يقدّمها الوسطاء من رجال الدين، لها نفس المآلات والنتائج.

في المقابل يقف البنيويون موقفا مشابها وهم الذين يعتقدون بأن موت المؤلف يسمح بتحقّيق عملية تواصلية مباشرة بين القارئ والنصّ، أين يتقدّم النصّ بشكل مباشر للقارئ دون وساطة أو وصاية من قبل المؤلف، وهذه الطريقة تضمن للقارئ حريّته الكاملة في ممارسة وجوده وفاعليته من خلال تقديم قراءاته الخاصّة من غير إملاءات خارجية، ومن غير أن تفرض عليه التأويلات والتفسيرات الجاهزة، والقراءات النهائية التي تعمل على تقييد إمكانيات النصّ، وتحوّله إلى رسالة ثابتة تمنع تعدّد القراءات، وتحظر التفسيرات البديلة.

فالنصّ في التصوّر البنيوي بنية مغلقة، لا سبيل إلى فكّ شفراتها إلا من خلال دراسة محايثة في القواعد اللغوية والتركيبية التي تحكمه، حيث يعتقد البنيويون أن النصّ يحتوي على بنية تحتية تتحكّم في تفسيره، وأن هذه البنية تتدخل بشكل مباشر في تحديد المعنى الذي يمكن استخلاصه من النصّ، وبهذا تكتسي المقاربة النسقية التي يقدّمها البنيويون بديلة عن المقاربات السياقية طابعا شكليا حين تجعل من المعنى معطى نصيّا يتم استخراجه من خلال تحليل البنية اللغوية والرمزية، وهذا المفهوم يؤكد على أهمية التحليل البنيوي الدقيق للنصّ لتحديد معانيه الحقيقية، ويحدّد دور القارئ في فهم النصّ وفقا لقواعده البنيوية(حمد، د.ت، صفحة 152).

من جهة أخرى يؤدي استقلال النصّ عن المؤلف، وانفصاله عن سياقات إنتاجه التي حدّدت معناه في البداية، إلى تخليصه من الانتماءات؛ ولسنا نعني هنا الانتماء إلى المؤلفين بقدر ما نعني الانتماء إلى الشعوب والثقافات، ذلك بأن دعوة الحداثيين إلى تحرير النصّ من القيود التاريخية والثقافية؛ الهدف منها إعطاء النصّ بعدا عالميا وكونيا، بحيث يكتسب النصّ مرونة تسهّل عملية تنقله في الزمان والمكان، ليتحوّل بفعل ذلك إلى منصّة للتفاعل بين الثقافات المختلفة، ورسالة عالمية تترجم أفكارا مشتركة بين البشر، بدلا من أن يظل مقيّدا بثقافة أو مجتمع معيّن.

5. تعدّد القراءات، وضياع المعنى:

لا شكّ أن عدم إيمان بعض الفلاسفة بوجود إله وخالق لهذا الكون قد جعلهم يخوضون رحلة وجودية طويلة وشاقّة مؤونتها العقل وتأمّلاته، وهدفها الوصول إلى المعنى والغرض والحقيقة. هذه الرحلة كانت بدايتها بقطع الصلة مع الدين وماضي الفلسفة، وإعادة البناء على أرضية جديدة الأمر الذي جعل الفلاسفة الوجوديين يُسقطون عن جميع المعايير والقيم القديمة صفات الثبات والقطعيّة، فالفلسفة الوجودية ترفض فكرة وجود أحكام مطلقة ومقدسّة، وتؤكد على أن جميع الأحكام والقيم والمعايير هي نتاج اجتهادات بشرية (الفلاسفة ورجال الدين)، ومادام الأمر كذلك فإنه لا وجود لحقائق ثابتة، ولا لأجوبة نهائية عن الأسئلة الوجودية التي يطرحها الإنسان.

معنى ذلك أنه لا وجود لمعنى نهائي للوجود، وكلّ ما هنالك تفسيرات وتأويلات بشرية متعدّدة وغير ثابتة، ولأنها كذلك فإن الإنسان في الفلسفة الوجودية محكوم عليه بالعيش في عالم من اللامعنى؛ عالم من الفوضى والضياع، وهي نتيجة حتمية بالنظر إلى منطلقات هذه الفلسفة، فنسف البناء المعياري الجماعي، ورفض جميع الحقائق والإجابات كما يقدّمها الدين، والفلسفات الكلاسيكية، ثم إعطاء الحرية للأفراد في تقرير ما يناسبهم كل حسب هواه، كلّ ذلك لا يمكن أن يؤدي إلا إلى عودة الإنسان إلى نقطة الصفر حيث القلق الأنطولوجي الذي رافق وجودهالأوّل،وأمام تكرار حالات الفشل في الوصول إلى إجابات مقنعة حول معنى الوجود، وما رافق ذلك من أعراض القلق، الذعر واليأس راح أعلام هذه الفلسفة يرمون الوجود بالعبث والعدمية، واللامعقولية!!

ولما كانت المنطلقات نفسها كانت النتائج نفسها أيضا مع البنيويين وإن مع اختلافات نسبية، نظرًا لبعض المكاسب التي تحقّقت لهم من وراء الاستغناء عن المؤلف، ذلك بأن هذا الفعل فتح المجال واسعا أمام القرّاء على اختلاف فئاتهم، توجّهاتهم وانتماءاتهم من أجل تقديم قراءاتهم المختلفة في جوّ من الحرية الفكرية، بعد أن فرضت القراءة الواحدة نفسها لقرون عدّة ارتبطت فيها ارتباطا وثيقا بالاستبداد والتسلّط، "فما ظنّه المتقدّمون من حيث إن للنصّ الأدبي معنى واحدا ثابتا هو المعنى الذي قصده بالقول، ورمى إلى توصيله المؤلف بالتأليف، والتصنيف، ما هو إلا ضرب باطل من الظن، أدى إلى شيوع مفهوم خاطئ هو الذي يمكن أن نطلق عليه أسطورة المعنى المطلق... ولا تفسير لهذا إلا بالقول: إنه الإرث الذي تناقلته أجيال الدارسين، والقرّاء ونقاد الأدب من عصور التسلّط، والاستبداد والحكم المطلق"(خليل، 2010، صفحة 277).

إن التعامل مع النصّكوثيقةمفتوحةتتعدّددلالاتهابتعدّدالقراءات، أمر محمود في شكله العام لأنه يسمح بتفعيل دور القارئ، وتمكينه من المشاركة في صناعة المعنى، لكنه في المقابل قد يصل بالبنيويين إلى ذات النتيجة التي انتهى إليها الوجوديون، ونحن نعني ضياع المعنى، فانفتاح النصّ على القراءات المتعدّدة دون أن يكون هناك معنى هو المرجع الأساسي، قد يؤدى إلى تشتت المعنى وضياعه بين التفسيرات المختلفة والتأويلات المتضاربة، التي تجعل من النصّ منفتحا على جميع التفسيرات دون أن يكون له معيار واضح يحدّد معناه الحقيقي، وهذا الأمر يفقد المقاربة النصيّة الثبات والوضوح في التفسير، بحيث تصبح القراءات الذاتية هي المرجع الأساسي، وهذا منافٍ للطبيعة الموضوعية للنصّ كما يؤكد على ذلك القول التالي الذي جاء خصّيصا في نقد البنيوية. يقول صاحبه: "ثمّة افتراض شائع وأساسي في النظرية الحديثة مفاده أن النصوص ليس لها معنى شائعا وأساسيا وموضوعيا، فالمعنى بحسب هذه النظرية هو نتاج للتأويل ومتغيّر إلى ما لا نهاية، أما أنا فأرى عكس ذلك تماما، فمعنى عمل ما هو موضوعي تماما، حيث يتوقف على عوامل موضوعية تحديدا، كالكلمات الواردة في النصّ عينها، وأعراف القراءة السائدة، وهلمَّ جرًا"(جاكسون، 2008، صفحة 369).

هذا يعني أن هناك عوامل موضوعية تتدخّل في تحديد معنى النصّ أو تقريبه إلى الأفهام، وعليه فإنه من المهم جدا أن تكون هناك حدود بين القراءات والتفسيرات الشخصية، والمعايير النقدية التي تضمن فهما صحيحا ومستقرا للنصوص، وتحافظ على المعنى الأصلي؛ أو على الأقل المعنى الأقرب، وبالتالي فإن وجود إطارٍ مرجعي واضح للقارئ تتحرّك ضمنه القراءات أمر ضروري جدا حتى لا تفقد القراءة قيمتها وتضيع في التعدّد، فالنصّ الأدبي الذي اعتبرناه صورة مصغّرة عن الكون، وأداة لفهمه إذا غابت فيه المعاني، وتعدّدت حدّ الضياع، فإنه بهذه الطريقة يغدو وسيلة أخرى لتأكيد فهم الوجوديين حول اللامعنى في الوجود، ولا غرابة في ذلك مادام اللامعنى في الأدب هو نتاج مفهوم "موت المؤلف" الذي يعد امتدادًا لمفهوم آخر فلسفي هو "موت الإله".

6. خاتمة:

أسفرت هذه الدراسة المعنونة بـ: "موت المؤلف: الخلفيات الفلسفية لاستقلال النص" عن جملة من النتائج المهمّة. نذكر منها:

- ✓ يعتبر مفهوم موت المؤلف امتدادًا طبيعيًا لفكرة موت الإله في الفلسفة الوجودية، وكلاهما يسعيان إلى تحطيم السلطة المركزية التي تهيمن على تفسير المعنى، وتقديم القراءات والتأويلات.
- ✓ إذا كان موت الإله يرمز في الفلسفة إلى تحرير الإنسان من العقائد التقليدية والأحكام القطعيّة التي فرضتها الأديان والفلسفات الكلاسيكية، فإن موت المؤلف بدوره يسعى إلى تفكيك السلطة التي يمتلكها المؤلف في تحديد المعنى النهائي للعمل الأدبي.
- ✓ تؤكد فكرة موت المؤلف على أن المعنى لا ينبع فقط من نيّة المؤلف بل يتمّ بناؤه أيضا من خلال القارئ وتجربته الشخصيّة، وبذلك يصبح النصّ مفتوحا للتفسير والتأويل.
- ✓ انتقال سلطة تقرير المعنى من المؤلف إلى القارئ أو المتلقي فتح المجال لتعدّد المعاني والتأويلات، وهذا التحوّل يتماشى مع فكرة الانتقال من مركزية الإله إلى مركزية الإنسان التي سعت بدورها إلى تحرير الإنسان من القيود الكهنوتية والمفاهيم الثابتة التي كانت تفرضها الأيديولوجيات الكبرى.

- ✓ أدى الإعلان عن موت الإله والمؤلف في الفلسفة والأدب تواليا إلى ضياع المعنى، فبالنسبة للوجوديين أصبح الإنسان مضطرا لإيجاد المعنى البديل في عالم خالٍ من الأسس الثابتة، مما خلق شعورا بالعبثية والعدمية، أما بالنسبة للبنيويين فإن غياب المؤلف جعل التفسير خاضعا لتعدّد الرؤى والتأويلات، مما نتج عنه فقدان المرجع الذي تستند إليه القراءات، وتشتّت المعنى.

ختاما نودّ أن ننبّه إلى خطورة تمثّل هذه المفاهيم الوافدة علينا من الغرب دون العلم بالخلفيات الفلسفية والفكرية التي رافقت نشأتها وتشكّلها، وأيضا الشروط التاريخية والثقافية التي أنتجتها، لأن ذلك يؤدي في العادة إلى تشويه المفهوم وتحريف فكرته الأصلية، وتوظيفه توظيفا خاطئا، فتغريب هذه المفاهيم عن أصولها الفلسفية والفكرية يؤدي بالضرورة إلى عدم استيعابها بالطريقة الصحيحة، وبالتالي استخدامها استخداما خاطئا، وهو أمر لا يخلو من مجازفة خاصّة مع مثل هكذا مفاهيم يمكن أن تناقش في عدّة سياقات فلسفية ودينية وأدبية.

7. قائمة المراجع:

1. نيتشه، فريديريش، (2007)، هكذا تكلّم زراداشت _كتاب للجميع ولغير أحد، تر: علي مصباح، منشورات الجمل، بغداد، ط1.
2. الدوّاي، عبد الرزاق، (1992)، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1.
3. سارتر، جان بول، (1964)، الوجودية مذهب إنساني، تر: عبد المنعم الحفني، الدار المصرية للطباعة والترجمة والنشر، ط1.
4. القاضي محمّد، وآخرون، (2010)، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1.
5. كيركجارد، سورين، (2013)، المرض طريق الموات _عرض مسيحي نفسي للتنوير والبناء، تر: أسامة القفاش، مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1.
6. كولر، جوناثان، (2016)، رولان بارث _مقدّمة قصيرة جدًا، تر: محمد فتحي خضر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1.

7. كولينز، جيمس، (د.ت)، الله في الفلسفة الحديثة، تر: فؤاد كامل، مكتبة غريب، مصر، د.ط.
8. خليل، إبراهيم، (2010)، بنية النصّ الروائي، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط1.
9. حمد، عبد الله خضر، (د.ت)، مناهج النقد الأدبي السياقية والنسقية، دار القلم للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، د.ط.
10. جاكسون، ليونارد، (2008)، بؤس البنيوية _الأدب والنظرية البنيوية، تر: ثائر ديب، دار الفرقد، دمشق، ط2.
11. مبشور، هشام، (2018)، روح الإصلاح الديني في فلسفة كيرككورد، مجلّة تبيّن، العدد 6/23.